

المنهجية الحسّية في / عن عنف إعادة الإعمار

ياسمين قعدان

جامعة بيرزيت، فلسطين

تحاول هذه الإضاءة¹ مواجهة عمليات تورية الحواسّ معرفياً، وكيف نقفز عن فكرة أنّ العنف يسكننا خلال العلاقة والممارسة الحسّية مع البقاء والفقْد، وكيف تمّ فرض العنف الإستيمّي والوجودي على الحواسّ عبر "المعرفة العلمية" وعسكرة الجسد والمكان من خلال دراسات عملية إعادة الإعمار. وتقوم الفكرة والإدراك الحسّي هنا على محاولة رسم الكلمة، كإزعاج، مع تعقيدات فعل العنف الاستعماري على الفكر والإحساس في تخيّل الحياة الممكنة والاستمرارية الثقيلة مع كلّ الموت الذي خرقنا في العنف الإبادي. وبذا، تعمل هذه الإضاءة على تقديم حالة حسّية بين الكلمة والرسم استدخلتها الباحثة إلى جسدها مع كلّ صور الإبادة، وذلك لمحاولة تجاوز حدود المنهج والمنهجية الاجتماعية. ولعلّ الأهم أن نوسّع المساحة كلّها للأخلاقية البحثية التي عليها أن تتأبّى في البحوث عن غزة خلال التسارع الاستعماري الإبادي، وتحديدًا عند تناول موضوع مثل "إعادة الإعمار" بكونه عنفاً ممتدّاً للحظة القتل والإبادة، وهذا ينطبق على الخطط التجريبية التي تحمل زمنية خاصّة بمختبر استعماريّ/ رأسماليّ، وليس بحياة مبتورة، وعمارٍ تحوّل لرفات للشهداء، والذي لا يصحّ ولا يستقيم أخلاقياً ومعرفياً معه استخدام كلمة "إزالة الركام".

تقديم

في حياة تحت الاستعمار، لا يحتوي تعبير "إعادة الإعمار" إلّا على العنف الذي أنتجه، من "الإعادة" التي تحمل سمة التكرار للكارثة، إلى "الإعمار" الذي تسبقه وتليه خطوط عمودية من الانفجار والدخان والموت. ومع كلّ ذلك يأتي أيضاً عنف الهندسة والرقابة، وقتل المحليّة والألفة للأمكنة والذكريات المحسوسة في زمن التنقّل اليومي، ومحاولات السيطرة على تحرّك مجموعات المقاومة المسلّحة. بل، والأقسى من ذلك، أنّ أهل غزة يعيشون موتاهم الذين تحلّوا تحت أطنان من الركام الذي ما يزال يجثو بثقلٍ حولهم، ويعيشون سؤال المآلات حول أجسادهم وأجسادنا.

إنّ ما تحاول هذه الإضاءة مواجهته هو عمليات تورية الحواسّ معرفياً، وكيف نقفز عن فكرة أنّ العنف يسكننا خلال الممارسة الحسّية والعلاقة مع البقاء والفقْد، وكيف تمّ فرض العنف الإستيمّي والوجودي على الحواسّ عبر "المعرفة العلمية" وعسكرة الجسد والمكان. فمن حيث إمكان تحليل "إعادة الإعمار" ودراساتها في مرحلة

سابقة كُنَّا نستطيع ذلك عبر مفاهيم عديدة، مثل: "الأمن"، و"سياسات الموت والحياة" و"هندسة الفضاء والفراغ" و"الذاكرة الجماعية"... وكنت قد أجريت دراسة كهذه عن مواراة الموت في إعادة إعمار الضفة الغربية بعد انتفاضة الأقصى في العام 2000،² إلا أنَّ الإبادة تطرح سؤالاً وجودياً وأخلاقياً لم تعد للكلمة أن تحتويه، وكأَنَّ الكتابة نفسها في زمن الإبادة أصبحت عنفاً ممتدّاً للإبادة نفسها.

فإذا كُنَّا نرى شريطاً للصور المتكررة للمجزرة، نراه في الضوء والعممة، وإن كانت سرعة الصاروخ القاتل لا تسمح لنا برؤية مكانٍ للقبر أو للنوم "المُعلَّق"، وإن كُنَّا لا نستطيع فهم أيّ آلية لإعادة المعنى "المُعتاد" للرصيف والمدرسة والمستشفى دون قبور، وإن كُنَّا لا نستطيع، أو ليس من المسموح أن نسأل أهل غزة عن مدى قدرتهم لرؤية "إزالة" الركام وهم يعلمون أنَّ عظام أبنائهم وشعرهم ورائحتهم ما تزال فيه... فهل لنا بعد ذلك كلُّه أن نكتب كلمة مثل "الفهم"، و"التحليل"، و"المجادلة"؟

ومن اللا-مصادفة أن تُبعث مجدداً النصوص كُلُّها التي تحدّثت عن المجازر إلى يومئذنا المبعثرة، هذه النصوص التي تذكّرنا أنَّ الإبادة ليست ممارسةً جديدة للاستعمار والإمبريالية، وهي النصوص التي كانت تستثير حواسنا وخيالنا عن إمكانية امتدادنا زمانياً لتلك اللحظة، كمثّل أن يكتب مالك بن نبي في العام 1957 نصاً بعنوان "النجدة... الشعب الجزائري يباد"³، وأن يكتب جان جينيه نصاً بعنوان "أربع ساعات في شاتيلا"⁴ وهو يصف رائحة الموت في صبرا وشاتيلا في أيلول في سنة 1982، وأن تكتب إيتيل عدنان في بداية الحرب الأهلية بلبنان قصيدة لا تنتهي، بعنوان "يوم القيامة العربي"⁵. وكذلك أن ينقطع نفسنا ونحن نحمل الكلمات والحكايات والأمل لرفع العرير الذي كتب شعراً عن المجازر التي ارتكبت بغزة،⁶ وهو الذي استشهد بوحدة منها.

وبذا، تقوم فكرة هذه الإضاءة على محاولة رسم الكلمة، "الكلمة كإزعاج"، في تشويش الحواس والإدراك، مع تعقيدات ما فعله العنف الاستعماري على الفكر والإحساس في تحيُّل الحياة الممكنة والاستمرارية الثقيلة مع كلِّ الموت الذي خرقتنا في العنف الإبادي. وبهذا المعنى، تسعى هذه الإضاءة لتقديم حالة حسّية بين الكلمة والرسم استدخلتها الباحثة إلى جسدها مع صور الإبادة كُلِّها، وذلك لمحاولة تجاوز حدود المنهج والمنهجية الاجتماعية. والأهم أن نوسع المساحة كُلِّها للأخلاقية البحثية التي عليها أن تتأني في البحوث عن غزة والإبادة ما تزال مستمرة. وفي حين أننا نوسع المساحة كُلِّها للأخلاقية، فإننا أيضاً نوسع مساحة للألم الفلسطيني وللقوة الفلسطينية التي تبقى عصيّة على الاستعمار الصهيوني، والتي تكمن في الدم والعظم الذي يلفُّ الأمكنة الفلسطينية كُلِّها. هذه القوة تكمن في توضيح أنَّ العملية البحثية هي عملية شفاء، وكل عملية بحثية كما هي عملية شفاء ترتبط بشكل أساسيٍّ بالجسد. فإن كُنَّا نحاول جماعياً أن نبقى، فنحن نحاول كذلك أن نشفى، وهو ما يمكن أن يكون ركيزة وجودية للفلسطينيين، أي أن يروا الشفاء امتداداً من أجسادهم لأماكنهم، وخيالهم، وكذلك لركامهم، وشهدائهم.

وفي هذا السياق، تحاول اللوحات الفنية، التي رسمتها الباحثة، عكس محاولات عسكرية الجسد واعتياده على

عنف الإبادة، وأن تكون الكتابة والتحليل جزءاً من هذه الاعتيادية، ليكون الرسم جزءاً من محاور الإضاءة وعناوينها كشرطٍ للصور. هنا يكون الرسم والكتابة خيالاً وواقعاً دون فصل بينهما في الإحساس بين استقبال لحظات انفجار الصواريخ وتناثر الموت، وتخيّل وانتظار لحظة انفجار الشهداء في وجه الاستعمار في بنية "إعادة الإعمار" العنيفة ضمن تراكم القهر والأمل والأسئلة في/ وعن غزة وكلّ فلسطين. فهل لنا، إذن، أن نرسم البحث والحياة كمنهجية بلغة هجينة ممتزجة بالألم والخوف وتشوُّش العقل؟



ياسمين قعدان، دون عنوان 1، مواد مختلطة على ورق شفاف، (2024)، 11x30

مواودة الحواس والعنف الإستيمي

إنّ مواودة الحواسّ تتمحور أساساً في ممارسة العنف الإستيمي، وذلك لأنّ أنظمة المعرفة "الغربية" قامت على تحييد الحواسّ، أو تحييد أغلبيتها، من أجل إنتاج تصميمٍ علمي للبحث يُمنطق، تبعاً لمنظور غربي، ما تعنيه "المنهجية" و"الأدوات" و"الموضوعية"، وبالتالي يُقضى من هذا التصميم العديد من أنظمة المعرفة ومصادرها التي لم تدخل التصنيف الغربي للعقلانية. وعلى ذلك، فإنّ مفهوم العنف الإستيمي يشير إلى الطرق المختلفة التي يُمارس بها العنف فيما يتعلّق بإنتاج المعرفة وتمريها والاعتراف بها، سواءً بإنكار الفاعلية المعرفية لبعض الذوات، والاستغلال غير المُعترف به لمواردها المعرفية، أو بتحويلها إلى مجرد "أشياء"، ونزع الذاتية عن المعرفة ورفضها، والاستخراج الأكاديمي، وسوء فهم الشهادات ونقلها... ولعلّ الأهمّ هو ترابط ذلك كلّ مع الاستيلاء الاستعماري والسرديات الذرائعية للاستعمار على أركان المشهدية المعرفية.⁷

لقد ارتبطت دراسات العنف الإستيمي بنظريات مناهضة الاستعمار، ونزع الاستعمار، وما بعد الاستعمار... التي تجادل بأنّ الضرر الناجم عن العنف الإستيمي لا يقتصر على نظام المعرفة، بل يمتدّ إلى مجالات العلاقات الاجتماعية وتجارب التهميش السياسي جميعها، لأنّه ينطلق قبل تحديد شروط الإدماج أو الإقصاء، ولأنّه يحدث قبل النقاش حول الاعتراف والتمثيل. ولذا، يمكننا القول إنّ سمة العنف المعرفي هي أنّه لا "يقضي"، بل يُسكّث، ويكّمّم، ويخفي، ويهمّش، ويؤاري... حتى قبل بدء أيّ نقاش عن "الإدماج".⁸ وعلى ذلك، يكمن جوهر أيّ شكل

من أشكال العنف الإبتسمي في الإلزام بتصنيف الذات والأنظمة الثقافية بتقسيمها إلى مجالين مختلفين ومنفصلين: "نحن" و"الأخرون"، ولكل منهما دوره المعرفي الخاص. ف"نحن" مركز الفاعلية المعرفية، و"الهم" أو "الأخرون" يستبعدون ضمناً باعتبارهم "دون المعرفة"، ويبنى وجودهم بالرجوع إلى الـ "نحن"، ويصبحون أداة استخراجية وحسب. وبذلك، يُعتبر العنف الإبتسمي "إنكاراً تاريخياً واجتماعياً لذاتية أو شرعية أو وجود فرد أو جماعة أخرى" يُمنع فيه أفراد أو مجتمعات بأكملها من تطوير ممارسات صنع المعنى أو المشاركة فيها. ولا شك أن هذا يحيلنا إلى ممارسة التشيي،⁹ والتي يتم التمييز بها بين "النحن" و"الأخر" من خلال تقسيم العمل الفكري، حيث يُعتبر أحد الطرفين "موضوعاً" للمعرفة والأخر مجرد "شيء". وعلى هذا النحو، يمحو التشيي فاعليّة أولئك الذين يُختزلون إلى مجرد "أشياء" ويرسخ فكرة التفوق الفكري لـ "الذوات" التي تنسب المعرفة إليها، ويقلص الدور المعرفي للأخريين من خلال إنكار سلطتهم المعرفية. ونتيجة لهذه العمليات، تتواجد مجالات معرفية كاملة تتعرض للازدراء والتهميش، ما يؤدي إلى فجوات في طبقات كاملة في النظام المعرفي وموارثها. ويشمل ذلك ما يسميه ميشيل فوكو "المعارف الخاضعة"، لا سيما كونها "المعرفة القادمة من الأسفل/ معارف الناس". فهي سلسلة كاملة من المعارف التي تم استبعادها باعتبارها معارف غير مفاهيمية، أي باعتبارها معارف غير مكتملة: معارف ساذجة، وأدنى مرتبة من المستوى المطلوب من العلم أو المعرفة العلمية.¹⁰

لقد مورس العنف الإبتسمي في موضوع الحواس عبر التمرّك على حاسة العين من قبل علماء عصر التنوير، أي هيمنة العين من خلال "المركزية البصرية الغربية". فمنذ أفلاطون تم الترويج للبصر على أنه أنقى الحواس، من الناحيتين المعرفية والأخلاقية، وتطور ذلك في القرن الثامن عشر من خلال الأنظمة التصنيفية للعالم الطبيعي والمادّي والتقنيّات البصريّة الجديدة التي تعمل من خلال "لغة مجردة للتمثيل البصري المجرد".¹¹ وقد أثرت هذه الأنظمة والتقنيّات البصرية على الأيديولوجيات الاستعمارية للحواس في القرنين التاسع عشر والعشرين بحيث رُبّطت الحواس "الدنيا" بـ "الطبيعة البدائية" للشعوب المستعمرة. إنّ الارتباط الوثيق بين الرؤية والنظام والمعرفة، الارتباط الذي تمّ التعبير عنه من خلال هذه الأيديولوجيات، جرى توضيحه من خلال بُني السلطة والمخططات السلطوية التي حدّدت مفاهيم، مثل "المراقبة الشاملة" كما طرحها فوكو.¹² كانت الرؤية هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها معرفة العالم، بل ويجب أن تُعرف كذلك. ولذا، كان لا بدّ من تكييف العالم مع هذه الحاسة الوحيدة، "الخالصة" و"الصحيحة"، مع حجب التجارب الحسيّة الأخرى جميعها التي اعتُبرت غير حقيقية، وغير ساّرة، وغير صحيّة، و/ أو غير أخلاقية. إنّ هيمنة الغرب على الرؤية والعمليات الاجتماعية والمعرفية والسياسية التي تعتمد عليها تتعقّد وتضعف مع ظهور أدلة إثنوغرافية من الدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات غير الغربية التي تعطي الأولوية لأنماط التجربة غير البصرية، مثل الصوت أو الرائحة، والتي أصبحت أساساً للدراسة عبر الثقافات.¹³

من خلال ما سبق، استلهمت الدعوة إلى إعادة تقييم الحواس من موقف نقديّ، حيث يتمّ التوجّه اليوم نحو تعزيز نهج متعدد الحواس، وإلى نماذج حسّية أخرى في الحياة اليومية. فعندما ندرس المعاني المرتبطة بمختلف

القدرات الحسّية والأحاسيس في ثقافات مختلفة، نجد وفرة من الرموز الحسّية القوية. وقد يرتبط البصر بالعقل أو السحر، وقد يُستخدم الذوق كاستعارة للتمييز الجمالي أو للتجربة الجنسية. وقد تدلّ الرائحة على القداسة أو الخطيئة أو السلطة السياسية أو الإقصاء الاجتماعي. تشكّل هذه المعاني والقيم الحسّية مجتمعةً النموذج الحسّي الذي يتبنّاه مجتمع ما، والذي بموجبه "يُدرِك" أفراد ذلك المجتمع العالم، أو يُترجمون الإدراكات والمفاهيم الحسّية إلى رؤية عالمية محدّدة. وقد فعّل هذا ما أطلق عليه "البحث الحسّي"، والذي يشير إلى اكتشاف الأبعاد المتعدّدة للعوالم التي يصعب التعبير عنها من خلال النصوص النظرية، ويعبر عنها بتقنيات جديدة تحاول الوصول إلى فهم الأسئلة الوجودية عن الممارسة الجسدية والنسيج العاطفي للوجود البشري والبيئي ككلّ، وكأنّها "أنثروبولوجيا تتجاوز النص".¹⁴ وهذا التجاوز، بلا ريب، لا يعني رفض الكتابة، وإنّما يثير جدلاً نقدياً حول طرق التمثيل، وهيمنة السلطة البلاغية في التعبير عن الثقافات والمجتمعات منذ ثمانينيات القرن الماضي. وهي محاولة لتوضيح كيف يمكن إعادة تشكيل العلاقة بين النصّ والصوت والصورة بشكل مثمر في بحث ما وضمن وسياقات مختلفة، بما يؤدي إلى أشكال جديدة من الممارسة والتمثيل في الأنثروبولوجيا وما وراءها.

هنا يظهر دور الباحثة في محاولة فهم الثقافات الحسّية الأخرى، الذي عليها أن تختبر بنفسها الإدراك الحسّي للآخر. إلّا أنّ هذه المنهجية تواجه نقداً "علمياً" لكونها ذاتية، وتزبل "المسافة" بين الباحثة والموضوع. وعبر التشبُّث بهذه الرؤية، يتمّ الانتقاص من إستيمولوجيات الآخر، وإخضاعها لتفسير غربي للمعرفة، كما تجري إعادة تأكيد بُنى السلطة داخل الأوساط الأكاديمية الغربية فيما يتعلّق بمن يقرّر ما هي المعرفة "الحقيقية". ولعلّ الأهم من ذلك ينبغي أن يكون النقطة الأخلاقية المطروحة هنا جلياً، ألا وهي إنكار معرفة الآخر الذي يتعارض مع المسعى المعرفي "للفهم"، والتمسُّك بتعريف غربي حدائي للعلم يعيق توليد أيّ معارف جديدة.¹⁵

تندرج النقطة السابقة، تحديداً في صلب تشكيل هذه الإضاءة، تحت سؤالٍ مهمٍّ عن الأخلاقيات البحثية عن الحروب وأثناءها، وتحديداً الإبادة، التي لا تترك حيزاً "نقياً" للشهادات، والتي تضع البحث نفسه في زاوية التأمل عمّا يمكن ممارسته معرفياً في هذه الحالة الوجودية. وذلك وبالطبع، في كلّ ما تستثيره عملية إعادة الإعمار من عنفٍ على الحواس، ومواراةٍ لها، تحت مسمّيات عديدة سنطرحها تالياً. ولذا، تعمل منهجية هذه الإضاءة على نقلٍ حسّيٍّ ذاتيٍّ لتجربة العيش في مجتمع تتعرّض فيه أشكال الحياة كلّها للإبادة على نحوٍ يصعب على اللغة، أو اللغة بشكلها المحدّد، نقله. وذلك عبر تشكيلٍ بصريٍّ لرؤية ذاتية وتأمّلية عن أزمة (إعادة) الإعمار في غزة وفلسطين. ولأنّ الجسد الفلسطيني يتمّ تقطيعه حرفياً، تحاول هذه الإضاءة نقل جزء بسيط ممّا أحسستّه ذاتياً، ومن ألمٍ من شاهدتهم وسمعتهم يصرخون ويموتون بصوت عالٍ للصاروخ، وبصمت الأرض التي ابتلعتهم، والهواء اللزج الذي تبخروا فيه، وما زلنا نتنفّسه ونتنفّسهم.



باسمين قعدان، دون عنوان 2، مواد مختلطة على ورق شفاف، (2024)، 11x30

رأسية إعادة الإعمار

يتصاعد الانشغال سياسياً حول السؤال المستقبلي عن الآليات الممكنة لإعادة إعمار غزة منذ بدء معركة طوفان الأقصى. ولكن، ما تشهده غزة اليوم من إبادة هو حالة غير مسبوقة في الزمن الراهن، مع عشرات الآلاف من الشهداء، ومع تدمير غالبية معمارية غزة وكلّ حياتها والشبكة الحضرية فيها من المنازل والشوارع إلى المقابر. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ محاولات التفكير بإعادة إعمار غزة في حروبها السابقة كلّها، وحتى التحليلات السياسية لهذه المرحلة، كانت تتناول موضوع "الأمنيات" ضمن دراسات الاقتصاد السياسي والتنمية.¹⁶ يتعلّق هذا كلّه بحالة الحصار المفروضة على غزة، والتي تركّز على تعهّدت المجتمعات الدولية بتقديم مساعدات مالية كبيرة لجهود إعادة البناء، عبر تدفّقي سريع، كحالة إغائية-إنسانية، وضمن الأجندة والقيود السياسية التي بقيت هيكلتها واضحة عبر محاولات نزع التسييس. وبذا، فإنّ إعادة الإعمار لا يُمكن فهمها على أنّها عمليات محايدة أو تكنوقراطية لأنّها مُصمّمة بنويّاً لمنع أيّ عملية استقلال أو سيادة. والأدهى من ذلك أنّ الركام نفسه يتمّ تجييره للتقنيّات العسكرية، سواءً في لحظة تشكيله كـ "ديزايّن"، مثل "أهرامات غزة"، أو "البانكيك"، أو حتى باستخدامه للممارسات الحسابية التناسبية لمدى موت الفلسطيني،¹⁷ وتحويله في تقارير المؤسسات الدولية كمسألة "ضرر ماديّ" وليس كمخسر إنسانيّ أو وجودي.

وعلى هذا النحو، لا تمثّل إعادة الإعمار سوى كونها عنفاً موجّهاً يحدّد فيها الدمار معايير "إعادة الإعمار". وهذا ينطبق على المادة الأساسية للإعمار، وهي مواد البناء التي يمنع دخولها الاستعمار الصهيوني بذريعة إمكانية أن تستخدمها المقاومة في بناء الأنفاق. ويرافق ذلك، بطبيعة الحال، ترسيخ فكرة ارتباط المقاومة بالخسارة—عبر تدمير بيوت المقاومين وجيرانهم وحرارتهم ومنعهم من استلام أيّ منح لمواد البناء الخاصّة بإعادة الإعمار. وبذلك، فإنّ إعادة الإعمار هي عملية محكومة بالهيمنة الاستعمارية من لحظة استلزام الهدم الاستعماري لـ (قتل الجسد)، وقيامها بنويّاً على فكرة منع استعادة الحياة فوق الأرض لصالح منع حياة المقاومة تحت الأرض. وبالإضافة إلى ذلك تحضر الأجندات الخاصّة بتمويل إعادة الإعمار الاستعمارية، والمؤسسات والدول المسؤولة

عنها، وأي تدخل استعماري خارجي قد يكشف أو يؤثّر على أمنيّات المقاومة حول شبكة الأنفاق التي كانت آخذة بالتوسّع على مدى أكثر من عقد ونصف من الحصار. إنّ ذلك كلّه يجعلنا اليوم نفكّر فيما إن كنّا ما زلنا نحوم حول الأسئلة نفسها عن إعادة الإعمار كما كانت عليه سابقاً؟ ما أقوله إنّ ما يحدث في غزة اليوم يحتاج إلى أسئلة مختلفة قليلاً، ومنظور مختلف، وربما لنظريات ولغة مختلفة، ليس لأنّ هذا لم يحدث أو لن يحدث مجدداً في السياق الاستعماري، ولكن لأنّ هذه الإبادة ما تزال مستمرةً أولاً، ولأنّها تفوق قدراتنا السابقة على تحليل سخونة الأرض من المقاومة تحتها ومن الصواريخ الاستعمارية من فوقها والشهداء المنتظرين للخروج من تحت ركامها.

في سنة 2002، وخلال انتفاضة الأقصى، تعرّضت الضفة الغربية للتدمير الحضري المحصور في أماكن وصفت بأنّها تجمّعات للمقاومة المسلّحة (البلدات القديمة، والمقاطعات، والمخيمات). ويمكن القول إنّ هناك اختلافات عديدة صاحبت عملية إعادة الإعمار في الضفة الغربية، إلا أنّ أهمّها هو أنّ إعادة الإعمار اقترنت مع محاولة إنهاء أيّ إمكانيات تعيد تشكيل المقاومة المسلّحة داخلها. وقد تم ذلك من خلال تمويل ضخم استهدف المناطق والمباني المدمّرة، وكان أضخمها التمويل الذي حصلت عليه المقاطعات لإعادة إعمارها. وبذلك، خضعت هذه المناطق لـ مواراة الموت الاستعماري،¹⁸ واللعب على سياسات الذاكرة والنسيان فيها لتقديم فكرة أرض منزوعة السلاح من خلال نماذج معمارية أمنية لسلطة فلسطينية محكومة استعمارياً (المقاطعات) ولها بنية رقابية ضخمة من مستلزمات وشكل هندسي محدّد و"باطون مسلّح". ترافق ذلك مع شقّ شوارع واسعة في مخيمات اللجوء لتسهيل دخول الآليات الصهيونية العسكرية، وخطط استعمارية للبيوت بأرقام وأسماء متاحة للاستهداف الحالي والمستقبلي. وكان كل ذلك، بطبيعة الحال، للحيلولة دون وجود حيّز للمقاومة المسلّحة. وبينما خلقت حركة حماس من غزة المحاصرة فرصة لتفعيل القدرات العسكرية باطنياً، خلقت السلطة الفلسطينية في الضفة نموذجاً مشوّهاً رأسياً لنسيان إبادة الجسد—الجسد البشري والجسد المعماري في آنٍ معاً.¹⁹

لقد كانت إعادة الإعمار في الضفة الغربية ميداني البحثي لرسالة الماجستير، وما زلت حتى اللحظة أمارس الانعكاسية²⁰ حول ما حلّت وما كتبت عنها. ولا شك أنّ الحياة تحت الاستعمار تجعلنا مجبرين أمام تدفّق المقاومة بكل مكان، سواءً في الضفة الغربية أو قطاع غزة، على إعادة تشكيل أسئلتنا بعيداً عن هيمنة الخطابات الاستعمارية التي تحاول مراقبة أيّ ممارسة للعنف الثوري الفلسطيني وضبطها.²¹ ولعلّ من المثير للسخرية أنّ مخيم طولكرم، الذي احتضن الكتائب العسكرية والذي يُعاد تدميره اليوم وقتل المقاومين فيه خلال هذه المعركة، يقابل مباشرةً مبنى المقاطعة، المُعاد إعمارها، التابع للسلطة الفلسطينية. كما أنّ الكتائب العسكرية في الضفة الغربية أعادت تشكيل قدراتها في المخيمات (جنين وبلاطة وعسكر ونور شمس)، وكذلك في البلدات القديمة (نابلس)، على الرغم من كلّ مواراة الموت التي مارستها عملية إعادة الإعمار بعد انتفاضة الأقصى. وبطبيعة الحال كان هذا قبل تضافر جهود تصفية وجود هذه الكتائب في حملة "حماية وطن" على أيدي الأجهزة الأمنية للسلطة الفلسطينية، والتي استكملتها أجهزة الأمن الصهيونية خلال حرب الإبادة على غزة.



ياسمين قعدان، دون عنوان 3، مواد مختلطة على ورق شفاف، (2024)، 11x30

مع اشتداد الإبادة بزمناها، وبصورٍ متكرّرة تضعها محطات التلفاز كخلفية لنشراتها الإخبارية، وهي تُظهر غزة بركامها بلونٍ رمادي وبنسجٍ يُظهر عنف التفتّت، تصاعدت بشكل موازٍ خطط إعادة إعمار غزة تحت ما سُمّي بـ "اليوم التالي للحرب". بلغت هذه الخطط أكثر من عشرة، سواءً أكانت محلية أو إقليمية أو عالمية، نحو: خطة "غزة فينكس"، وخطة "الجبثور الإماراتية"، وخطة السلطة الفلسطينية، وخطة "فلسطين تنهض PREP"، وخطة "ريفيرا غزة"، وغيرها الكثير.²²

وفي المجمل، ومن غير المستغرب، أنّ معظم هذه الخطط لم تفكّر بغزة وناسها، ولم تُصمّم بناءً على سؤالهم عمّا يريدونه لمدنهم ومخيماتهم وبلداتهم وأحيائهم ومقابرهم، بل صُمّمت لنزع حركة حماس والقضاء على المقاومة، وتطويع غزة ضمن أدوات حوكمة استعمارية رأسمالية ليست بجديدة. وربما يمكن أن يطلق عليها "رأسمالية الكوارث" على الرغم من أنّ ما حدث في غزة ليس كارثة، بل هو تجلٌّ فاضح لما يعنيه العنف الاستعماري والرأسمالي.

ويضاف إلى ذلك أنّ الخطط عموماً (التي بقيت حبراً على ورق) حملت معها زمنية حسابية مُعقلنة لإعادة الإعمار، تبدأ بزمنية "إزالة" الركام، وتمتدُّ إلى مشاريع اقتصادية لتحويل غزة إلى منتجع، تصل حتى ربع قرن من التخطيط التقني والإداري المجرّد بين أرقامٍ وقياسات وحسابات توجي أنّ غزة هي مكان يحتوي على الركام وحسب، أو أنّها "صفحة بيضاء" ومختبر للتجريب والتخطيط دون ماضٍ أو حاضر أو مستقبل لناسها وإحساسهم بتغيّره وتغيّر مكانهم وحياتهم.



ياسمين قعدان، دون عنوان 4، مواد مختلطة على ورق شفاف، (2024)، 11x30

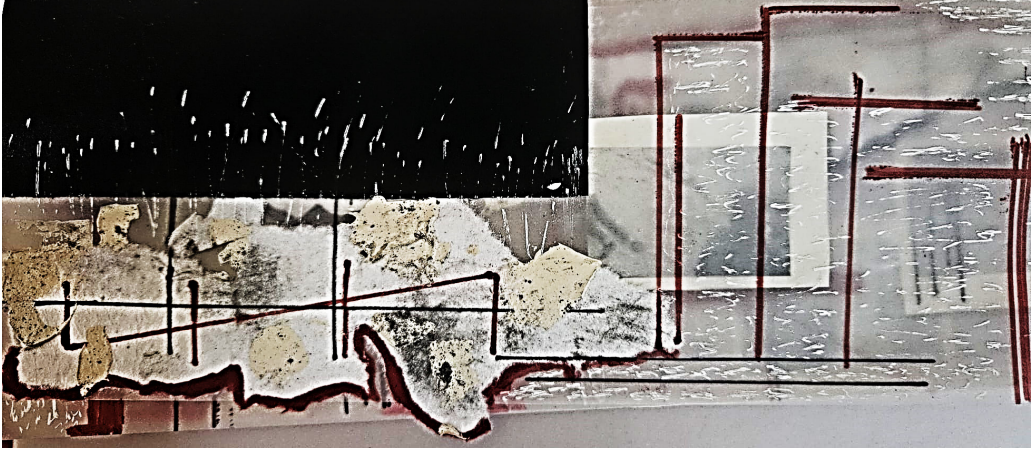
بناءً على ما سبق، فإنّ محور النقاش يكمن في أنّ أيّ إعادة للإعمار تحت الاستعمار تستلزم في وجودها المركزي أن تكون خطأً رأسياً لقتل المقاومة المسلحة، وبالتالي قتل فلسطين والفلسطينيين. ويبدو أنّ المقاومة في غزة قد شكّلت وغيّمتها خلال الحروب السابقة حول ذلك عبر خلق إسمنت مخفيّ (وهو النفق) الذي يغيظ الاستعمار. إلّا أنّ هذه الخطابات الأمنية اليوم، تعرّض أكثر من مليون ونصف للتهدية والزوح، ما يشكّل موتاً عامّاً مختلفاً عمّا شهدته فلسطين وغزة في المعارك السابقة كلّها. لقد أصبح مطلب إعادة إعمار غزة مطلباً أساسياً لحركة حماس بعد المطلب الأول وهو وقف إطلاق النار. وبالإضافة إلى الوعي بأجندات إعادة الإعمار، نحتاج اليوم إلى سؤال مختلف حول الإمكانيات، والطرق، والأدوات لإحياء أرضٍ ساخنة بالموت، وزمنية غير مفهومة عن آليات الحياة الممكنة عليها تبعاً للإبادة الاستعمارية المستمرة. كيف نخلق "إعادة اعمار" مختلفة حتى تغلب الحياة والمقاومة كلّ الموت الاستعماري في غزة وكل فلسطين؟

إذا كان المعمار جزءاً أساسياً في تشكيل النسيج الاجتماعي في مكانٍ ما وظائفياً ودلالياً، فكيف يمكن فهم إبادة معمارية كاملة لمجتمع ما وتحليلها؟ وكيف يمكن تغيير الصورة البصرية الحالية للإبادة والموت نحو استعادة نسيج جديد من الحياة؟ يقترن ذلك كلّهُ بأنّ بقاء الفلسطيني اليوم مرتبط ببقاء معمارية أخرى، تحت الأرض في غزة، وهي الأنفاق الحاضنة للمقاومة، والتي تحافظ على بعديّ الأرض والجسد، والمخيمات الحاضنة للمقاومة في شمال الضفة الغربية.

هناك نظريات وأبحاث كثيرة ناقشت ما أُطلق عليه "الإبادة الحضرية" تبعاً لممارسات الاستعمار الصهيوني قبل طوفان الأقصى، ومنها أن تدمير المدن يقع باعتباره سياسة ضد المدينة، وباعتباره جزءاً من عمليات الإقصاء، وكذلك باعتباره أحد مسوّغات الحرب على "الإرهاب". وهو بالتأكيد جزء من الإستراتيجيات والأغراض العسكرية للاستعمار، والتي تُبنى على التثبيتي و"إنكار الآخر" ووجوده وحركته بكل الأشكال.²³ وبالتالي، فإنّ تدمير مدن وأحياء وشوارع ليس استراتيجية استعمارية جديدة، وقد حدثت من قبل في السنوات 1948 و1967.²⁴ ويرى ساري حنفي أنّ التدمير الذي وقع لم يكن فقط تدميراً مكانياً بل تدميراً حضرياً بمعنى أنّه تدمير ينتج القليل من الموت "أحياناً". إنّ التدمير الذي حصل في الحرب الصهيونية لا يشمل فقط الأبنية، بل ذاكرة السكّان من خلال دمار الأبنية، وذلك يشكّل الرابط بين هوية المكان الحضري والحرب التي تخصّص تقنيات جديدة لتدمير المدينة. يستعمل المستعمِر الصهيوني مجموع التقنيات هذه لأنّه يعتبر الفلسطينيين حالات استثنائية من خلال السياسة الحيوية التي تجيز له فرض مبرراته لتدمير الفضاء المعاش الذي يعمره الفلسطينيون، من أجل تسهيل إخراجهم من الأرض وتدمير الهوية الباقية لهم.²⁵ لكن هذا التحليل قد سبق الإبادة الحالية المستمرة، والتي لا تقوم فقط على تدمير الهوية وإخراج الفلسطيني من الأرض، وإنّما ودون أيّ حاجة إلى تبريرات استعمارية، فالغرض هو قتل الفلسطيني كهدف أساسي ومستمر مع الصواريخ التي تُطلق يومياً عليهم. وما قتل المدينة والمعمار إلا لقتل امتداد ما ومن بقي حيّاً بأيّ وسيلة تتيح استمرارية الفلسطيني على أرضه.

ربما ما أتمسك به اليوم بشكل "نظري" هو ما يطرحه علي حرب عن تغيير المشهد والفكر في عالم اليوم: "إنّ مغزى الاستشهاد بالأحداث الكبرى التي غيّرت وجه الأرض ومشهد العالم، أنّ الحدث والحقيقة والفكر، هي ثلاثة مفاهيم تتقاطع بقدر ما تتداخل ولا مجال لأن ينفك أحدها عن الآخر، بل يُعاد تركيبها باستمرار. ومع كل تركيبة مفهومية يحصل تغيير في الخارطة وانقطاع في المشهد، تتغيّر معه أشكال المعارف وأنماط الروابط، على قدر ما للحدث من القوة والأثر، أو من الوزن والثقل. ولذا، لا يمكن للمرء أن يفكر بصورة منتجة، بالقفز فوق الحدث وما يتولّد عنه من الحقائق أو الوقائع. فمن يفكر بصورة مجدية وفعّالة، إنّما يفكر فيما يحدث، وبسببه ومن أجله، أي من أجل صوغ الحدث والمشاركة في صنعه، إخراجاً للممكن مخرج الوجود، أو تدخلاً في لعبة الإمكان وخارطة الكائن، للانخراط في عملية الإنتاج أو الخلق والتشكيل، وما يحدث له قوته ووقائعيته. إنّها قوة الحقائق التي يولّدها الحدث والتي تفرض نفسها، في وضع ما أو قطاع ما أو حقل ما، بقدر ما تغيّر نماذج المعرفة ومعايير العمل، أو مرجعيّات المعنى وأشكال التواصل، بصورة لا مجال معها للعودة إلى الوراء، إلّا بقدر من الزيف والتضليل، أو بنوع من التعسّف والتجبر أو بضرب من العنف والإرهاب."²⁶

اختتاماً بمقولة حرب، نقول هنا، إنّ أيّ عملية رجوع إلى الوراء في دراسات تتعلّق بإعادة الإعمار، ما هي إلّا عنف من الدائرة نفسها التي أنتجت أصولها. وحتى الكتابة وتناول هذه النظريات ما هي إلّا إزعاج للعقل والجسد. وهذا السبب ذاته الذي يجعلنا نلجأ إلى مقولة الحسّي في محاولة الكتابة عمّا يحدث بفلسطين. ولربما تكمن هنا مقولة هيربرت بلومر بأنّ العلوم الاجتماعية بحاجة أكثر لمفاهيم حسّية أكثر من كونها مفاهيم نهائية،²⁷ تحديداً لأن الميدان لا يقَدّم حالياً ما تمثّله منظومة المفاهيم المعتادة لوضع نتيجة أو تحليل أو خاتمة.



ياسمين قعدان، دون عنوان 5، مواد مختلطة على ورق شفاف، (2024)، 11x30

تأملات حسّية في العنف والمقاومة

لقد حاول المستعمر الصهيوني، على مدى سنتين ونصف، توجيه حواسنا نحو الموت بمادّيته وبصريّته ورائحته وترقّبه على أجساد الفلسطينيين في غزة، وذلك كلّه لإبعادنا عن حسّية الفعل المقاوم الفلسطيني العزّي بتفجّره في 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023. هذا التاريخ الذي لا يمكن أن يوثق إبادة فقط، فهو أيضاً يمثّل استمرارية الحياة ومقاومة الاستعمار. لقد شهدنا، منذ انطلاق معركة طوفان الأقصى، تجلياً للعنف الثوري من قبل فصائل المقاومة العسكرية في غزة التي عبرت الحدود الاستعمارية إلى بطن "المستعمرة الأولى" في فلسطين 1948، من السماء والأرض والبحر. وقد شكّل ذلك ظاهرة جديدة لنا على مستوى الإستراتيجيات العسكرية التي طوّرتها المقاومة متحديةً فيها حصاراً طويلاً لأكثر من عقد ونصف على غزة. وكذلك كانت هزةً مخلخلة للاستعمار الصهيوني الذي رأى حصنه الأمني والعسكري ينهار خلال ساعات. وبذا، فقد تمخّض عن هذه الهزّات كلّها حالة شعورية غير مسبوقة تكثّفت تواصلياً عبر الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي. التأمل الأول كان لصدمة أهل غزة لحظة إدراكهم أنّ الحدود قد فتحت، وأنّ المقاومة الآن هي بداخل البطن الاستعماري، والتي قوبلت في مشاهد الفيديو والصور الأولى لأهل غزة بالسخرية حول أنّه كان يجب إعلامهم، لأنّهم، على حدّ تعبير صحفيّ الحرب الناشئ عبّود بطّاح، والذي كان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً: "مش بس اليهود مصدومين، إحنا مصدومين... حرب إشي مثل "ice coffee"، أجواء حرب بتجنن، يعني شوي ربع ساعة وبنموت".²⁸

بعد ساعات من الفعل المقاوم الذي شهدناه، بدأت سماء غزة تُفعل الحاسّة الأولى الأبرز في هذه الحرب وهي السمع، من أصوات مكثّفة من طائرات الاستطلاع التي يطلق عليها أهل غزة اسم "الزنّانة"، وهي طائرات أمنية تصدر أصواتاً مزعجة جداً تستبق حالات القصف الجوي. وفي معظم الأحيان لا تغادر سماء غزة، والتي تبتّ حالة

من الخوف المتواصل لأنَّ تواجدها يعني ارتباطها مع صوت آخر قاتل، وهو صوت الصواريخ التي تنزل عليهم من الطائرات الصهيونية، ليُسمع صوت الانفجارات المتتالية وفي أماكن متقاربة ومتفرقة في غزة. لا ينفصل السمع عن البصر، حيث يأتي انفجار الصاروخ مع "لون أحمر" بوصف أطفال غزة، فلم يكن سماع الصوت هو ما يحدث بالنسبة لهم بل البصر. وربما يشير هذا إلى اختلاف الحسّية بين معنى الصاروخ لمن يشاهد سقوطه ومن هو أسفله ويتلقّى ثقله وحمم الموت التي فيه. بعد ذلك، يتصاعد الدخان من مكان الانفجار، والملفت في ذلك أنّ لون الدخان كان يشير إلى نوع المبنى المستهدف، ما فعّل نوعاً آخر من ألغة المكان المحليّة في خريطة تحاول الحرب قتلها، حيث كان الصحفيون يشيرون أثناء معابنتهم إلى أنّ لون الدخان قد يدلُّ على ما إذا كان المبنى يحتوي على موادّ تصنيعية أم أنّه مبنى سكني. وقد ساعد هذا العديد منهم في تحديد المكان والمنطقة التي يتمّ قصفها، تحديداً في الأسابيع الثلاثة الأولى من الحرب، قبل فصل شمال غزة عن جنوبها. وبالإضافة إلى ذلك، ربما ما لم تتمكّن مئات الكاميرات أو السماعات من نقله هو الرائحة، وكأنّ حاسة الشمّ ما تزال هي التي تملك السطوة على من يعيش تحت الصواريخ بعيداً عن حواسّ من يشاهد ويسمع. فإن كنتُ أنا كمشاهدة وغيري نستطيع تمييز صوت الصاروخ ولون انفجاره، فنحن لا نعرف رائحته. إنّ الرائحة التي عبّر عنها أهل غزة كانت تظهر بفعل الأدخنة والغازات التي تأتي من الانفجارات، مع رائحة البارود والغبار والإسمنت الناتج عن تفجيرات معمارية غزة.

يمكن القول إنّ ما وصفناه حتى اللحظة هو فقط الملاحظات الأولى لما تلقّته الحواسّ أول أيام الحرب. أمّا تصاعد عنف المجازر والإبادة الجماعية فقد جعل عنف الحواسّ يصل إلى مراحل أبعد، فسماع الصواريخ ترافق مع صراخ الناس في المنازل والشوارع. والأهمّ من ذلك أنّ هذا الصراخ يجب أن يتوقّف حتى يتمكّن الدفاع المدني من سماع أصوات من هم تحت الركام، وهذا الصمت اللحظي لأجساد تصرخ من الداخل كان أعنف عندما يُعْم صمت المبنى المقصوف ولا يخرج منه أيّ صوت لأحياء من داخله. والبصرية المرافقة للإبادة تأتي مباشرة مع ركام المعمار، وجاتامين الشهداء التي لم يعد لها متّسع في زمن القصف لتجد مكاناً لها تحت الأرض. يضع الغزيون صوراً لجاتامين الشهداء المتركمة ويكتبون: "هكذا هي صباحات غزة". وهذا جزء من زمنية القصف التي يعايشها الغزيون اليوم، والتي قدّمت إحساساً مختلفاً بين النهار والليل، وبين أوقات اليوم المختلفة، والتي ترتبط بصباحات طوابير البحث عن الخبز والماء لساعات تمتدّ حتى العصر، وبين هلع رؤية الغروب الذي يشير إلى بداية ليلٍ معتم لا ضوء فيه إلاّ ضوء الصواريخ العنيف، وألوان مشوّهة للفسفور الأبيض. أمّا الرائحة، فقد أصبحت بتعبيرهم "رائحة الموت"، والذي لم يكن تعبيراً مجازياً فقط، بل مادياً من رائحة جثامين الشهداء التي بدأت بالتحلّل لأنّهم لم يتمكّنوا من إخراجها من تحت الركام، ودفنها تحت الأرض، والجاتامين التي حوصرت في ساحات المستشفيات وبقيت لفترات طويلة نظراً لقتل العدو كل من يحاول دفنها. كلُّ هذه الحواسّ تدور حول الموت والجوع والخوف، وفي الوقت ذاته تقدّم أملاً غريباً يجعلهم يواصلون يومياً من أجل العيش، والإنقاذ، والوصول، والمواساة.

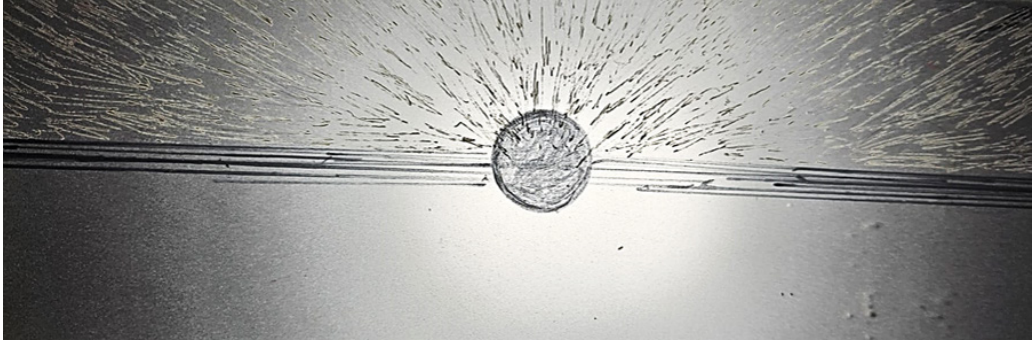
أمّا عسكرياً، فإنّ عنف الحواسّ لم يُفرض فقط على أهل غزة المدنيين، بل وفي الأساس على عناصر المقاومة،

وهي أيضاً إستراتيجية استخدمتها المقاومة نفسها ضدّ الاستعمار. فمنذ بداية الحرب تَعَمَّد الاستعمار الصهيوني قطع الكهرباء عن غزة بهدف تعمية المقاومة، وفصل قدرة التواصل، وزيادة حالة الإرباك والهلع. ومع بداية "التوغّل البرّي" في غزة، كنّا نستطيع رؤية كيف يحاول الجنود الصهاينة حماية أجسادهم داخل المدرّعات العسكرية دون أيّ تواصل بصري أو لمسيّ مع أرض غزة. ومن الجبهة الشمالية لفلسطين، تواردت مقولات المقاومة اللبنانية يومياً في الأسابيع الأولى في الحرب عن "تعمية الاستعمار" عبر توجيه ضربات مباشرة أبراج المراقبة والكاميرات التي زرعتها الصهاينة. ولعلّ إستراتيجية التعمية مورست من قبل المقاومة الفلسطينية في غزة على الاستعمار من خلال "النفق" الذي شكّل أداة المقاومة الأهم حدّاً أنّه وصف المقاومين بـ "الأشباح" الذين يخرجون من الأرض بلا قدرة على سماعهم أو رؤيتهم أو لمسهم، وبالتالي يجمّدون حواسّ العدو أو يحدّونها لتسديد ضربات مباشرة له.

لا شكّ أنّ تجربة أيّ حرب تحمل حالة من الإرهاق الحسّي، مع كمّ الأحاسيس القوية التي ترافق حالة الموت والدمار المرافقة لها. حيث تقوم الحرب بتعطيل الروتين اليومي والبنى الاجتماعية للمجتمع، وتدفع الأفراد إلى بيئة غريبة وفوضوية.²⁹ تؤدّي هذه الاضطرابات إلى حالة متزايدة من الوعي، حيث يتحمّل الجسد انفجارات عنيفة وصوت إطلاق النار ورائحة البارود الكريهة ومشاهد الدخان والدمار. لا تؤثّر هذه الأحاسيس فقط على الكفاءة الجسدية، بل تشكّل أيضاً الحالة العقلية والعاطفية أثناء الحرب. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الحواسّ المثارة للأفراد تشكّل حالة جمعية للصدمة، فالحرب تولّد تجربة جماعية للمعاناة والخسارة، والتي يمكن أن تكون لها امتدادات نفسية واجتماعية مختلفة.³⁰ كما أنّ الأحاسيس تلعب دوراً حاسماً في تشكيل الرأي العام وجلب الدعم للعمليات العسكرية. فاستناداً إلى أعمال بيير بورديو، يمكننا فهم كيف يتمّ استخدام التمثيلات الرمزية والممارسات الثقافية في بناء تحيّل جماعي للحرب.³¹ وبالإضافة إلى ذلك، فعلاً ما تستخدم الحكومات ووسائل الإعلام صوراً وأصواتاً وقصصاً تستحضر العواطف القوية للتأثير على الرأي العام. ومن خلال الاستناد إلى أحاسيس الخوف، والوطنية، والظلم، يمكنهم التلاعب بالرأي العام وتوليد الدعم للجهود الحربية. ولربما يضع هذا أمامنا السؤال الأكبر حول أنّ النظريات التي ناقشت الحرب لم تكن تتساءل عن حالة لا يمكن أن نطلق عليها حرباً بتصنيفات العلوم السياسية أو الاجتماعية ضمن منظومة "الدولة القومية"، بل هي ممارسة استعمارية تهدف إلى اقتراف إبادة مستمرة، وهذا يجعل الأحاسيس والعواطف والتلاعب وقتل اليومي تأخذ حيّزاً ليس مختلفاً فقط وإنّما لا يمكن إدراكه بالطرق المعتادة.

وبعيداً عن التأثير الجسدي الحسّي اللحظي، فهناك امتداد للحظة الحسّية تتشكّل حتى مع وقف إطلاق النار، وتأخذ بالترسّب في ذاكرة الجسد الفردي والجماعي. ولعلّ هذا يشبه ما طرحه بول كونرتون عمّا يتجسّد وينتقل من خلال الطقوس والممارسات الاحتفالية، وذلك بأنّ يتمّ تضمين أحاسيس الفقدان والحزن والتذكّر بشكل عميق فيما يلي "الحرب" بحيث تعمل المذابح والتذكارات والطقوس كممارسات تسمح للأفراد والمجموعات بالتعبير عن حزنهم الجماعي وتكريم أولئك الذين ضحّوا بحياتهم. كما تضمن هذه الأحاسيس بالفقدان وعملية التذكّر

ألا يُنسى ثمن الحرب.³² وبالعلاقة مع هذه الفكرة، لا بدّ من الإشارة إلى حوارٍ أذكر أنّ أحد صحفيي قناة الجزيرة مع أهل غزة يسألهم "عندما تنتهي الحرب ماذا سيكون أول شيء تفعلونه؟" حيث كانت معظم الإجابات تفيد بأنّه "سنفتح بيت عزاءٍ جماعي لنواسي بعضنا، أهلنا وأصدقاءنا، وجيراننا."



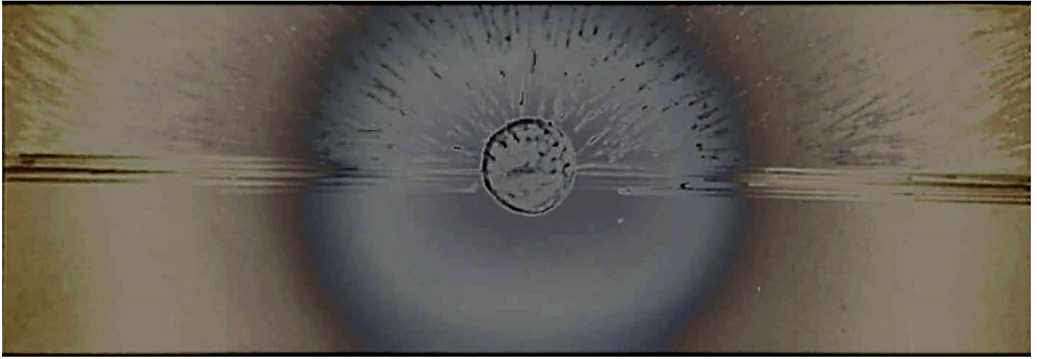
باسمين قعدان، دون عنوان 6، مواد مختلطة على ورق شفاف، (2024)، 11x30

العمار بكونه رفاتاً: في إدراك ما لا يدرك

يشكّل العمار بكلّ تفاصيله وبمختلف أشكاله حالة حسّية عاطفية يرتبط بها الأفراد مع طقوس اجتماعية متعدّدة تتنوّع باختلاف نوع الحركة والبقاء والتجارب التي يخوضونها فيه، سواء كان بيتاً أو مدرسة أو شارعاً مزوّداً بأعمدة إنارة أو مقبرة لها طقوس معتادة للحزن والفقْد. وبهذا، يعتبر العمار جزءاً أساسياً من ارتباط الجسد بالمكان والزمان، وعند فقده تأخذ هذه الروابط بخلق حالات متقطّعة وجديدة عمّا تمّ اعتياده حسّياً. ويأتي هذا الترابط بين الجسد والمعمار في صلب تاريخ الهندسة المعمارية لمحاولة تمثيل التناغم النسبي والانسيابي في التشكيلات الجسدية التي نقلت لتصميم المباني والمعمار في مختلف المدارس المعمارية. ومن ذلك ظهرت في مجال الهندسة المعمارية مصطلحات تشير إلى هذه العلاقة من التماثل بين الجسد والمعمار، مثل جلد وعظم، وجلد بنيوي.³³

أمّا ما لم تتوقف عنده الهندسة المعمارية ومدارسها مطوّلاً، فهو شكل المعمار في علاقته مع الإبادة، فالارتباط بين الجسد والمعمار، والذي شكّل أبرز ملامح الهندسة المعمارية، أخذ شكلاً عضوياً (لا طبيعياً). فبعد ما يقارب عامين ونصف على بدء الإبادة ما تزال جثامين الشهداء مطمورة، لا مدفونة، في ركام معمارية غزة. وهي لم تعد جثناً بالمعنى التصويري للجسد الميت، بل تحلّلت بين عناصر هذا الركام، وأصبحت مكوّناً من الحجارة المفتتة بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. لقد أصبح العمار هنا رفاتاً، والرفات عمارة. ومع هذا الاندماج العضوي لحياة الجسد والمعمار وموتهما سوياً، يصبح مصطلح "إعادة الإعمار" لا معنى له، ومعهُ أيضاً تصبح مفاهيم مثل جلد وعظم وجلد بنيوي، واقعاً وليس تمثيلاً، لا يحتاج لنسب وخرائط ورسومات هندسية تتربّع في أمكنتنا ومن أجسادنا.

في شهر كانون الثاني/يناير 2026، أسرني فيديو قصير على منصّة إنستغرام لزوج في غزة،³⁴ يحمل غربالاً ويجلس على ركام منزله، ويفرل الركام ليخرج ما تبقى من عظام زوجته وأطفاله. وقد كانت من بينهم طفلة التي كان عمرها ثلاثة أيام، يحمل بين يديه عظمة كتفها التي وجدها في الغرابل. وإذا حاولنا إدراك هذه القصة وهذه التفاصيل، أي إدراك ما لا يُدرّك، فكيف لتحليلات وتنظيرات "المستقبلية" أن تجعل للرفات ممارسةً حسابية في إعادة إعمارها! تذكر العديد من المراجع الصحفية مقولات "لخبراء" في الركام، حول مدّة زمنية يحسبوننها لإعادة إعمار غزة تتراوح بين ثلاثة وثلاثين عاماً، وكان آخرها تصريح لـ علي شعث، رئيس اللجنة الوطنية لإدارة غزة وإعادة الإعمار،³⁵ وهو يحسب مساحة "قطاع غزة"، بأنّه، وحسب تقديره الشخصي، "خلال سبع سنوات ستعود غزة كما كانت". إن كلّ التصريحات، حتى اللحظة، تجسّد فقط عملية من العسكرية للجسد والمكان، وهو ما يكمن في عملية مواراة الحواسّ، وممارسة العنف عليها، من فخّ الأرشفة والتوثيق، إلى سلب السيادة المحليّة، وقتل أمكنة المقاومة، وخلخلة مكان القبر، وطقوس الفقد، والمسارات المعتادة في المعيش اليومي داخل المكان. فكيف تُحسب زمنية ما، أو تقنية ما لإزالة عائلتنا، وجميع خطط إعادة الإعمار تتناول كلمة "إزالة"! وكيف سيتعامل أهل غزة مع مصطلح "الإزالة" نفسه، فهل يزيل أبٌ وأمٌّ رفات ابنهما؟ وكيف يتعامل مع الإزالة ابنٌ ما يزال يشمُّ رائحة أمّه في الركام؟ وهذا، بطبيعة الحال، لا يأتي ذكره في الخطابات التي تركّز على أنّ إعادة الإعمار تصبُّ في ضرورة استمرارية الحياة. ولكن شكل الاستمرارية وشكل الحياة لا يُطرحان على الغزيين للتعامل مع إعادة الإعمار بكونهما لملمة لجسدهم،³⁶ ولكن بكونهما أعمدة وقوانين رأسية تقتلهم من جديد بحجة أنّ الركام يعيق هذه الاستمرارية، وأنّ تحييد الشعور واجب من أجل استمرارية الحياة! لكن هذا الزوج، مبتور الحياة وكسير القلب، يعطيهم كلمةً أخرى وهي "الغربة"... فهل سيُسمح لأهل غزة بغربة حياتهم، وجمع ما تبقى، حرفياً، من عظامهم؟



باسمين قعدان، دون عنوان 7، مواد مختلطة على ورق شفاف، (2024)، 11x30

الشهداء حرزٌ للشفاء

لم يُفصل الشهداء عن الحياة في فلسطين، فأسماء من استشهدوا من قرنٍ من الزمن ما تزال جزءاً من تفاصيل كثيرة تربط الماضي بالحاضر والمستقبل. الشهداء ما يزالون في أزقة الشوارع بصورهم وأسمائهم، وتُعلّق صورهم

قلائد على أعناقنا، وتوشم أسماؤهم على أجسادنا، وتكتب أسماؤهم في وصايا الشهداء الذين ينتقمون لهم. أيُّ أن الشهيد هو جزء من رسم الحاضر والمستقبل في حياة الفلسطيني. إنه ليس في حيز الموت، بل في حيز الحياة واستمراريتها فلسطينياً. إنَّ الموت في فلسطين جرى تطبيعاً ليصير أحد مظاهر الحياة، كما يقول عبد الرحيم الشيخ في عمله على المقبرة الفلسطينية الحية،³⁷ لأنَّ المقبرة، من وجهة نظره، أرشيف تخريبي، تحرّض على النظام الذي قمع الثورة في أمكنة الحياة، لكنّه لم ينتصر عليها تماماً في أمكنة الموت، وأنها تحتفظ بقصة الحقيقة بعد غياب مادّتها، ذلك بأنَّ الحقيقة، في المقبرة، يمكن الإمساك بها، حرفياً، أي الإمساك بالحقيقة عبر الإمساك بحروفها. وهذا ما لم تسلم منه أيضاً مقابر غزة في هذه الإبادة. ولكن ذلك لا يزيل سمة المقاتل عن شواهد القبور المنتظرة، والمقابر الجماعية التي تقول إنَّ الموت وجودياً يعطينا الحياة.

اشتغلت منذ أكثر من عام ونصف على مجموعة إثنوغرافية لتوفيق كنعان، وهي مجموعة تحتوي على أكثر من ألف قطعة من الحُجب والتمايم التي حملها الفلسطيني بغرض الحماية والشفاء، ومن ذلك أخذت أفكر بما يعنيه الشفاء: كيف نحاول أن نُشفى، وما هي الطريقة التي نُشفى بها، وكيف لا تنفصل هذه الحُجب والتمايم عن الجسد من أجل تحقيق غايتها؟ في زمن الإبادة لا يمكن وصف نوع المرض والخوف الذي دخل على الجسد الفلسطيني بكلّيته وهو يرى يده وكتفه تقطع في غزة. لم نعد نعلم كيف نستخدم بقية جسدنا لنجدة ما يُقطع منّا، ولا شيء مكننا من إيقاف الصواريخ والمذبحة التي صوّرت بكل تفاصيلها. هذا الألم الجمعي هو الذي يحتاج إلى عملية شفاء. لم أعد أعرف كيف تتشكّل عملية الكتابة مع هذا الألم! وعندما تكتب الباحثة بحثاً اجتماعياً فإنها تعبّر ذاتياً وليس جماعياً فقط، وإذا كان هذا الألم في نسيج جسدها أولاً وامتداده الجمعي، فإنها أيضاً تحتاج لأن تُشفى. وهذا البحث—الإضاءة—إنما يشكّل محاولة استشفاء، بالكتابة، وفي نقل الألم مع الكلمة عبر حالة حسّية، بالرسم، الذي كان حيزاً لما لا يُقال. وعن ذلك، عبّرت إيتيل عدنان عمّا بداخلي في إحدى مقابلاتها عندما سُئلت عن الرسومات التي ترافق شعرها، بالقول "لا يجب ترجمة هذه الرسوم إلى كلمات. إنها ما لا يُقال، فهي لا ترمز إلى شيء محدد. إنها ما يفوق المعنى، تلك الحاجة إلى مساحة قبل إيجاد الكلمة، اللحظة التي لم نجد فيها الكلمة بعد. لحظة توقّف، امتداد غير منطوق للفكرة أو حتى ما قبل الفكرة، كما هو الحال عندما نُخربش شكلاً ما ونحن نفكر. مثلاً، كنت أفكر في مركب فرسمت شيئاً يُشبه المركب، ولكن لم يكن هذا ما أريد أن أقوله تماماً. الكلمة لم تكن قد أتت بعد..."³⁸ فهل يُسمح للبحث، إذن، بأن يكون عتبةً بلغةً هجينة، حتى وإن لم يستخدم نظريات كبرى في كل فقرة؟ ولكن البحث، بالمستوى الحالي على أيّ حال، هو خطوة تسمح بإبقاء التساؤلات مفتوحة عن أخلاقيات بحثٍ لميدان مليء بالشهداء الذين تحلّلوا في ترابنا وهواننا، وندفّسهم... فهل يُسمح للبحث أن يُرسم لا لشيء، إلا لأتّه جزء من عملية الشفاء؟

وبما أنَّ الفلسطيني يعيش بموتاه، أرى أنَّ الشهداء هنا بوصفهم "الحرز"، ويأتي هذا الاسم بكون الشهيد "حماية"، يقدّم الرعاية عبر الإحاطة بنا، كمثّل الحُجب والتمايم التي تُعلّق على الأجساد لغايات الشفاء والحماية. الشهداء اليوم ليسوا صورة أو اسماً، بل هم اليوم قد انفجروا في الهواء لأنَّ الأرض لم تتسع لهم...

فبعض شهادات الأطباء في غزة أفادت بأنّ الأسلحة الصهيونية أدّت حرفياً إلى تبخير أجساد الغزيين—لم يعد لهم أثر إلّا في الهواء. ولذا، فحتى العمار الجديد، سيحاط بكلّ هؤلاء الشهداء الذين سيردّون على الاستعمار بفعل البقاء: جرّاً للناس وتميمة للمقاومة



ياسمين قعدان، دون عنوان 8، مواد مختلطة على ورق شفاف، (2024)، 11x30

الإحالات

- [1] ألقىت هذه المحاضرة في ورشة "معمارية الترميم"، بالتعاون مع رواق-مركز المعمار الشعبي ومتحف جامعة بيرزيت، في شهر كانون الثاني/يناير 2025، شوهد في 15 شباط 2026.
<https://www.youtube.com/watch?v=-1USNHtSfy0>
- [2] ياسمين قعدان، *موراة الموت في معمارة الفضاء الاجتماعي الفلسطيني* (رام الله: مواطن-المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، 2016).
- [3] مالك بن نبي، *شهادات حول ثورة التحرير* (الجزائر: عالم الأفكار، 2010).
- [4] جان جينيه، "أربع ساعات في شاتيل"، ترجمة محمد براءة، *الكرمل*، العدد 7 (1983): 146-172.
- [5] Etel Adnan, *The Arab Apocalypse* (Paris: PostApollo Press, 1989).
- [6] Rifaat Alareer, "If I Must Die," in Yuosef Aljamal (ed.), *If I Must Die: Poetry and Prose* (New York: OR Books.2024).
- [7] Moira Pérez, "Epistemic Violence: Reflections between the Invisible and the Ignorable," *El lugar sin límites*, Vol. 1, No. 1 (2019): 81-98.
- [8] For more See: Miranda Fricker, *Epistemic Injustice: Power and the Ethics of Knowing* (Oxford: Oxford University Press, 2007); Kristie Dotson, "Tracking Epistemic Violence, Tracking Practices of Silencin," *Hypatia*, Vol. 26, No. 2 (2011): 236-257.
- [9] للمزيد انظر: أشيل مبيمي، *نقد العقل الزنجي*، ترجمة طواهري ميلوود (الجزائر: ابن النديم، 2018).

- [10] ميشيل فوكو، **يجب الدفاع عن المجتمع**، ترجمة الزواوي بغورة (بيروت: دار الطليعة، 1997)، 35-36.
- [11] Yolanda van Ede, "Sensuous Anthropology: Sense and Sensibility and the Rehabilitation of Skill," *Anthropological Society*, Vol. 15, No. 2 (2009): 61-75.
- [12] للمزيد انظر: ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن**، ترجمة علي مقلد (بيروت: مركز الإنماء القومي، 1999).
- [13] Ropert Cox, *Anthropology of Senses* (New York: John Wiley & Sons, 2018).
- [14] Ibid.
- [15] David Howes, "Afterword: The Sensory Revolution Comes of Age," *The Cambridge Journal of Anthropology*, Vol. 39, No. 2 (2021): 128-137.
- [16] For more See: Sara Roy, *The Gaza Strip: The Political Economy of De-development* (Washington: Institute for Palestine Studies, 1995); Sara Roy, "De-Development :Revisited Palestinian Economy and Society since Oslo," *Journal of Palestine Studies*, No. 33 (2004): 64-82; Sara Roy, *The Gaza Strip: The Political Economy of Social Collapse* (Washington: Institute for Palestine Studies, 2016).
- [17] Eyal Weizman, *Forensic Architecture: Violence at the Threshold of Detectability* (New York: Zone Book, 2017), 143- 144.
- [18] قعدان، مصدر سبق ذكره.
- [19] ياسمين قعدان، "ما معنى أن نسير بين الشهداء"، **فسحة**، 30 تشرين الأول 2022، شوهد في 22 كانون الثاني 2026: <https://rb.gy/g5yse8>.
- ياسمين قعدان، "مخيم جنين: معمارية المقاومة"، **فسحة**، 9 تموز 2023، شوهد في 22 كانون الثاني 2026. <https://lnk.ua/RVd0G5kV3>.
- [20] طرح بورديو مفهوم الانعكاسية لتوسيع المنهجية السوسولوجية في فهم سياقات البحث والمشاركين في الميادين المختلفة التي يتمّ دراستها، والتي قد تتصادم مع عدّة أبعاد بين موقعية الباحث، وموقعية المشارك، أو السياقات الاجتماعية والثقافية، التي يجب على الباحث أن يكون مدركاً لها باستمرار، وأن يعي فكرة التغيير والاختلاف وتقدير ما يعنيه ذلك أخلاقياً ومعرفياً في تكوين وبناء المعرفة الاجتماعية. للمزيد انظر: بيير بورديو، **بؤس العالم** (دمشق: دار كنعان، ج3، 2001)، 363-392.
- [21] ياسمين قعدان، "نفاذية المقاومة: تحولات المشروع التحرري الفلسطيني بعد انتفاضة الأقصى 2000"، في **مفهمة فلسطين الحديثة: نماذج من المعرفة التحررية 2**، إشراف وتحرير عبد الرحيم الشيخ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2023)، 225-267.
- [22] علي عبد الوهاب، **إعادة إعمار غزة من خلال التخطيط المكاني: قراءات مقارنة لخطط ومقترحات إعادة إعمار غزة** (رام الله: ماس-معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطينية، 2025).
- [23] Nurhan Abujidi, and Han Verchure, *Military occupation as Urbicide by Construction and Destruction the Case of Nablus- Palestine*, (Belgium: Katholieke University Leuven, 2006), 198-199.
- [24] ساري حنفي وآخرون، **حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010)، 54.

- [25] ساري حنفي، "التطهير المكاني، محاولة جديدة لفهم استراتيجيات المشروع الكولونيالي الإسرائيلي،" *المستقبل العربي*، العدد 360 (2009): 67-84.
- [26] علي حرب، *الفكر والحدث: حوارات ومحاوَر* (بيروت: دار الكنوز للأدب، 1997)، 11.
- [27] هيربرت بلومر، "ما خطب النظرية الاجتماعية؟" ترجمة حسن احجيج، *عمران*، العدد 51 (2025): 117-126.
- [28] لم يعد الفيديو الأصلي لبعود موجوداً بعد أن تمَّ تعطيل حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي.
- [29] Antony Giddens, *The Nation-State and Violence: Volume Two of a Contemporary Critique of Historical Materialism* (California: University of California Press, 1985).
- [30] Jeffrey Alexander, *Trauma: A Social Theory* (Cambridge: Polity Press, 2004).
- [31] Pierre Bourdieu, *Language and Symbolic Power* (Cambridge: Polity Press, 1991).
- [32] Paul Connerton, *How Societies Remember* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989).
- [33] Bridget Quinn, "Skin + Bones: Parallel Practices in Dashion and Architecture," *Journal of Architectural Education*, Vol. 61, No. 1 (2007): 72–78.
- [34] رابط الفيديو على انستجرام، شوهد في 28 يناير 2026.
<https://www.instagram.com/reels/DTPoXjWEmnF/>
- [35] مقابلة مع رئيس اللجنة الوطنية لإدارة غزة وإدارة إعمارها علي شعث.
https://youtu.be/tEIXYxfX3Y?si=KkSmdY3ojf6_-Wv1.
- [36] نادرة شلهوب كيفوركيان، "تحدي الأشلاء والافتقار باللّم واللّممة،" *الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية*، العدد 2-3 (2025): 155-171.
- [37] عبد الرحيم الشيخ، "المقبرة الفلسطينية الحية 1: التاريخ المفاهيمي،" *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد 134 (2023): 85-120، 99-97.
- [38] جمانة الياسري، "كيف يكتب المرء كتاباً كسفر الرؤيا العربي؟ حوار غير منتهٍ مع إيتيل عدنان،" *الجمهورية*، 21 أيلول 2024، شوهد في 22 كانون الثاني 2026.
<https://lnk.ua/MenlGoQNg>.